ديك البرابر

بصوت انفعالي إلى حد ما شدني محتوى حديث ثنائي بين فتاتين جامعيتين في العقد الثاني من عمرهما، تجلسان بجواري داخل عربة مترو شبرا - الجيزة، وكان بصحبتهما شاب زميل لهما، يطغى على صوته وحركات جسده وإشارات يديه صفات الأنوثة.

ما سمعته منهم عبارة عن قصة خيالية - مسلية إلى حد ما، تُحكَى أحيانًا للعبرة والعظة في مواقف بعينها، كإنكار الجميل بين الناس أو الغدر أو ما شابه.

مظهر الفتاتين (اللبس والمكياج وبعض المفردات الإنجليزية التي تستخدمانها أثناء حديثهما بالعربية) وكذلك الفتى يؤكد أنهم من وسط «مرتاح ماديًا». تحدثوا عن الصفات الذميمة لزميلة لهم بالجامعة، لا همَّ لها – بحسب كلامهم – إلا نقل كل وأي شيء يسيء لثلاثتهم إلى بقية أفراد «الشلة»، ومن ثم وصفوها بـ«الثعبان» الذي يلدغ ما يتاح أمامه من فرائس لا تروق له.

قال الشاب بصوته «المايع»:

- البنت دي اللي اسمها (.....) فكرتني بحكاية من حكايات جدتي والدة مامي التي كانت تحكيها لي كل يوم قبل النوم.

نظرت الفتاتان لصديقهما متشوقتين لسماع الحكاية، فبدأ الشاب:

– يُحكَى أن سيدة «خيرة» عثرت على ثعبان صغير في حديقتها الجميلة، وكان الثعبان «الجبان» جائعًا «بردان»، فقررت السيدة أن تنقذه مما يعانيه، فأخذته إلى بيتها، وآوته، وبدأت تطعمه، حتى كبر الثعبان، وأخذ يتعود عليها، ينام بجانبها، يتبعها في كل مكان تذهب إليه و..... ويواصل:

– وفي يوم ما، كبر الثعبان وتوحش، وكان من الطبيعي – حسبما نسمعه من حكايات انتصار الخير على الشر – أن يصون هذا الثعبان معروف سيدته.

هنا قاطعته إحداهما، وقالت:

– شوف يا «.....» إحنا بنعطف على «.....» أدّ إيه، كنا بنشترى ليها أكل معانا، وبنعطيها ملابسنا اللي مش عاوزينها، ورغم ده كله، بتقعد تشتم علينا مع «الشلة». أفّ على دي بنت !!!

وتقول الثانية:

– ده أنا لسه عاطياها مذكرات وكتب ببلاش من كام يوم لما قالت لي إن ظروفها صعبة ومش هتقدر تشرتيهم يا حراااام. يبقى ده جزائي؟!.. صحيح خيرًا تعمل، شرًّا تلقى.

يقاطعهما الشاب، ويطلب منهما الإنصات، حتى يُكمل بقية قصته، فقال:

– ما حدث من الثعبان الغدار كان العكس تمامًا، ففي أحد الأيام توقَّفَ الثعبان اللعين عن الأكل دون سبب واضح، وحاولت معه السيدة الرحيمة أن يأكل أي شيء؛ ظنًّا منها أنه مريض، لكن الثعبان ظل على حاله عدة أيام ممتنعًا عن الطعام.. وكان يتبعها أينما ذهبت، وظل فترة على هذا الحال، بينما يزيد حزن السيدة، وتفكر في أي طريقة لإنقاذه.. ويتابع الشاب:

– وبعد عدة أسابيع قررت السيدة أن تذهب بثعبانها إلى الطبيب البيطري؛

ليعالجه من مرضه، فيُشفَى، فسألها الطبيب حين شاهد الثعبان يتحرك حولها:

- ما الأعراض التي تظهر عليه؟

حكت له السيدة كل ألاعيب ثعبانها، فسألها الطبيب مرة أخرى:

- تظنين أنه لا يستغني عنك، هذا صحيح؟!

- نعم هو متعلق بي جدًّا كما سبق وأكدت لك، بل ويتبعني أينما ذهبت، وينام بجانبي في السرير، بل وأحيانًا يلتف حولي طمعًا في الدفء و.....

نظر الطبيب إلى الثعبان نظرة الخبير بغدر اللئام، وأعاد عملية الفحص مرة واثنتين، حتى توصل لمكامن خطر الثعبان، ثم قال للسيدة الرحيمة:

- سيدتي، إن ثعبانك ليس مريضًا، إنه فقط يحاول أن يجوع فترة طويلة حتى يستطيع التهامك، وكونه يلتف حولك كل ليلة، فهذا ليس حبًّا فيك بالطبع، لكنه يحاول أن يقيس حجمك بحجمه حتى تستوعبك معدته. إنه – ببساطة شديدة – يعد العدة للهجوم عليك في الوقت المناسب، فخذي حذرك وتخلصي منه سريعًا.

وبمجرد انتهاء الشاب من حكايته، علا صوت الفتاتين بالتصفيق الباهت، وكانتا سعيدتين للغاية بتلك «النميمة» التي نالت من زميلة لهم!!.. انتهى.